مفهوم الجماعة المسلمة

د . آمنة محمد نصير

رغم ان الاجتماع ضرورة انسانية عايشها الانسان منذ كان ، فلم نعرف الحياة الا فى جماعة ، الا ان مفهوم الجماعة المسلمة يختلف تماما عن مفهوم الجماعة التى لا تخضع لمنهج الاسلام . وهو اختلاف يعود أساسا الى اختلاف نظرة الاسلام عما عداه الى وظيفة الانسان فى الأرض من حيث بدئه ورسالته ومنتهاه .

فالمذاهب المادية السابقة على ظهور الاسلام والتالية له تتواضع بالانسان حتى تضعه ضمن سائر فصائل الحيوان ، بل من هذه المذاهب ما يعد الانسان تطورا من تطورات الخلية الحيوانية ، وبالتالى فليس له فى غير الأرض بداية وليست له على غير الأرض نهاية . وأنه محكوم فى تطوره بحركة التاريخ وتداول الأيام ، فهو ابن الدهر والدهر آكله (وقالوا إن هى الاحياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر)(١)

وعلى ذلك وحسب مقتضى المذاهب المادية ، فليس للانسان من رسالة فى هذه الحياة إلا بالعثور على الصيغة المثلى لتعايش افراده بحيث يقتسمون أقوات الأرض على أحسن صورة الممكنة ، وبحثا عن الصورة الممكنة لاقتسام هذه الأقوات ، تنقسم المذاهب المادية الى فردية واشتراكية وشيوعية .

وحتى اصحاب النظر الفلسفى من أنصار المذاهب المادية لم يرقوا الى تصور بداية للانسان ، أو نهاية له ، أو رسالة يضطلع بها بعيدا عن هذا التصور ، اللهم الا محاولتهم تجريد المعاناة المادية من أشكالها للوصول الى تصور معنوى للسعادة الانسانية ومعطياتها . والقائمون على عقائد أهل

عند الإمام محمد بن عبد الوهاب

الكتاب ، وان توفر لهم من بقية العلم بالكتب السابقة ما يهديهم الى الاعتقاد بأن للانسان بداية تسبق عالم الحس وسيفضى إلى نهاية يلقى بها عالم البعث ، وأنه بين البداية والنهاية محل للتكليف من الخالق . الا انهم ربطوا بدء الانسان على الأرض بمقوله الخطيئة التى تأخذ بزمامه . والتى يحتاج معها الى الشفعاء من أبناء الرب وأحبائه يمنحونه صك غفران . يسلك به الى ملكوت السموات ، وإلا فهو محروم شقى لا محالة .

وقد جاء الاسلام بالخبر اليقين ، الذى يبدد وهم الأولين وغلو الآخرين ، فارتفع بالانسان عن وضاعة التطور من الخلية الحيوانية وأبان أنه مخلوق ذو مركز خاص فى الكون ، من حيث أصل خلقته (لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم)⁽٢⁾ . ومن حيث مكانه فى الأرض ورسالته (إنى جاعل فى الأرض خليفة)⁽٣⁾ ومن حيث قدراته وملكاته واستعداده (وعلم آدم الأسماء كلها)⁽٤⁾ . ومن حيث مسئوليته عن عمله (وأن ليس للانسان الا ما سعى)⁽٥⁾ وعدم مؤاخذته بجريرة غيره . (ولا تزر وازرة وزر أخرى)⁽٦⁾ .

نستطيع ان نقول إن البشرية لم تعرف قبل الاسلام جماعة انسانية تتكون بوازع العقيدة والعقيدة وحدها ، إذ أن الرسالات السماوية السابقة على الاسلام ظلت فى دائرة اصلاح وجدان الأفراد كأفراد ، دون أن تصبح محورا تقوم عليه حياة الجماعة ويأتلف به الانسان مع الانسان ، ومن ثم لم يكن مجتمع بنى إسرائيل خلال الفترة الوجيزة التى أقاموا فيها دولتهم إلا صورة خاصة لمفهوم الجماعة الانسانية القائمة على التصور المادى . ذلك أنهم وإن احتكموا إلى التوراة ، أغلقوا دائرة

الجماعة الانسانية على من يجمعهم الأصل العرقى الواحد .

فلما أنصف الإسلام الإنسان ، وكشف عن جوهره الفريد ومركزه المتميز فى الكون ورسالته فى الحياة انبثق من هذا التصور الإسلامى الفريد نموذج مثالى للاجتماع الإنسانى .

نموذج يمكن أن نلخصه فى عبارة واحدة . التسامى بالنوع الإنسانى حتى يكون أهلا لشرف التكليف بعبادة الله تعالى .

ويقوم هذا التسامى على قاعدتين : وحدة أصل الإنسان (خلق الإنسان من علق)(٧) . ووحدة الغاية التى خلق لأجلها (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)(٨) . والجماعة المسلمة مفتوحة لكل إنسان يتوفر فيه مفهوم القاعدتين السابقتين . وبحكم وحدة أصل الإنسان ومساواة أفراده فهم جميعا على اختلاف الأصل واللون واللغة وكلجنس مدعون للالتحاق بهذه الجماعة (قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا)(٩) .

والشرط الوحيد لتحقيق هذا الالتحاق هو : الإيمان بالله . وحيث يوجد هؤلاء المؤمنون ، فهم جماعة واحدة (إنما المؤمنون إخوة) . وعرفت الإنسانية بهذه الجماعة الإسلامية مفهوم الدولة العقائدية التى انضوت تحت أعلامها أمم شتى . هجرت رابطة العرق والوطن الى رابطة الدين والإيمان وظلت دولة الإسلام قوية ما بقيت هذه الرابطة الإيمانية فلما غلبتها نوازع الشعوبية تداعى البناء الشامخ ، وتصدعت أركانه . وأدرك الإمام محمد بن عبد الوهاب الجماعة المسلمة وقد تمزقت دار الاسلام إلى عدة ديار ، وعادت (نجد) إلى حال قريب من حالتها فى الجاهلية ويجمع سائر كتاب التاريخ والسنين أن الجزيرة العربية عامة ونجد بصفة خاصة كانت فى الفترة المتأخرة قبيل ظهور الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى جهالة جهلاء ، حتى أصبحت موطنا للجور والظلم ومسرحا للحروب والقتال والنهب والسلب ، بحيث يمكن القول : أنها بلغت من التدنى أحط الدركات حتى لتبدو فى جاهليتها الأولى أقل سوءا مما آلت اليه : فقد تجرد القوم لا من فضائل الإسلام وقيمه العليا فحسب ، بل من سائر الفضائل والقيم حتى ما كان منها فطريا موروثا فى جبلة العرب وطبائعهم ، وكأن العرب إذ انطلقوا مع الفتح الإسلامى الأول لم يدعوا قيمة خلقية أو نفسية الا واستودعوها رجالهم ، فخلفوا الجزيرة العربية موطنا للعاجزين ممن قعد بهم عن الجهاد ضعف الإيمان أو ضعف الهمة أو ضعفهما معا . وسرعان ما تبدت الأجيال التالية لهؤلاء القاعدين أكثر عجزا من أن تسمو الى استيعاب حقائق الإسلام ، والنهوض بتكاليفه . ثم أضيف إلى ذلك أن العناصر الممتازة التى غادرت الجزيرة العربية تحت لواء الفتح الإسلامى لم تلبث ان نسيت وطنها الأول بالتدريج وعادت الجزيرة شيئا فشيئا الى عزلتها السابقة فى الجاهلية ، وتوزعتها النزعات المتطرفة ، بعضها خروج على الاسلام ببعضه ، وبعضها خروج على الاسلام بكله ، فثارت ريح الجاهلية بعاداتها وتقاليدها وغزواتها وسالبها ومسلوبها وظالمها ومظلومها ، وكل ما يفترق بها عن الجاهلية الأولى ـ كما يقول ابن

غنام - بأنها استعاضت عن أصنام الجاهلية بتعظيم شجرة أو بئر أو قبر شيخ .

فكان على الداعية الذى يتصدى لبناء جماعة مسلمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، أن يواجه ركاما من الظلمات الغاشية ، بعضها فوق بعض . ظلام يغشى عقول العلماء أو الموسومين بكلعلم فضلا عن العامة والدهماء ، حتى اصبحت العقيدة الاسلامية المؤسسة على التوحيد الخالص مجرد أدعية تلوكها الألسنة دون أن تفرق بين توحيد وشرك ، وشفاعة وتوسل . حتى عكف أكثر الناس على دعوة الأولياء والصالحين . أحيائهم وأمواتهم ، وفتنوا بقدرتهم على جلب النفع وصرف السوء من دون الله . وكان على الشيخ محمد بن عبد الوهاب أن يواجه هذا الواقع ، ليحدد على ضوئه نظرته الى أسس تكوين الجماعة المسلمة .

وقد جاء هذا التحديد مقرونا بالتطبيق العملى ، الذى تفيض به الشواهد التاريخية . بدأ بنفسه فتزود بالعلم الذى يتميز به الحق من الباطل . حتى اذا استوعب حقائق الاسلام وتحقق له بعد الناس عن هذه الحقائق ، أخذ يدعو الناس « فأعلن الدعوة الى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر »(١٠) .

فلما التف حوله بعض الناس بذل جهده فى تعليمهم أمور دينهم . وكان له مجالس عديدة فى التدريس كل يوم وكل وقت فى التوحيد والتفسير والفقه .

وإذْ توفرت له الجماعة التى تلتقى معه فى مفهوم العقيدة الصحيحة القائمة على التوحيد الحق والاتباع الكامل لرسول الله ﷺ واجه الانحراف بعزيمة لتغيير المنكر « وتبعه أناس من أهل العيينة ، وكان فيها أشجار تعظم ويعلق عليها فبعث اليها منةيقطعها فقطعت »(١١) . واعترفت عنده امرأة بارتكاب الزنى الموجب للحد فأمر برجمها . وسرعان ما كشف المجتمع المحيط به عن مدى بيده عن شريعة الاسلام وأحكامة ، فقد استهول حكام الاحساء وغيرها من امارات الجزيرةالعربية مسلك الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى الالتزام بالتطبيق العملى لقاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فبدأوه بالعداء ، وحرضوا أمير العيينة ابن معمر على إخراجة منها فخرج مهاجرا الى الدرعية .

ولم يكن مخرجه من العيينة واضطراره الى الهجرة الى الدرعية ليثنيه عن الجهاد ، الذى عاهد الله عليه . بل كشفت هذه المحنة عن استعداده لمواجهتها ، وعن فهمه الدقيق لطبيعة الصراع بين الاسلام وأعدائه ، ومقتضيات هذا الفهم فى حواره الذى بدأ به لقاءه مع أمير الدرعية **محمد بن سعود . قال للأمير : « ... هذه كلمة التوحيد التى دعت اليها الرسل كلهم ، فمن تمسك بها وعمل بها ونصرها ملك بها البلاد والعباد ، وأنت ترى نجد كلها وأقطارها أطبقت على الشرك والجهل والفرقة والاختلاف والقتال بعضهم لبعض ، فأرجو ان نكون اماما يجتمع عليه المسلمون وذريتك من بعدك** . وجعل يشرح له الاسلام وشرايعة وما يحل وما يحرم ، وما عليه

النبى ﷺ واصحابه منةالدعوة الى التوحيد والقيام فى نصره والقتال عليه »(١٢)

وبهذه العبارات أوجز الشيخ مفهومه للجماعة المسلمة التى تتكون بوازع الايمان وتجتمع على نصرة الاسلام والقتال دفاعا وتطبيقا لشرائعة كما اوضح عن فهمه لطبيعة الصراع بين الحق والباطل ، وأن الباطل لا يخلى مكانه للحق الا راغما . واستدل على ذلك بما جرى للرسول ﷺ .

وبهجرة الشيخ من العيينة الى الدرعية أحيا فى الناس سنة الهجرة الى الله ورسوله « فهاجر الى الشيخ أصحابه الذين بايعوه فى العيينة الى الدرعية . ولم يلبث أن تزايد المهاجرون اليه من كل بلد لما علموا استقراره »(١٣) ويمكن القول بحق ،انه بهذه النواة من المهاجرين الى الدرعية تكونت الجماعة المسلمة التى تجمعها العقيدة ، والعقيدة وحدها ، وكان ذلك فى حد ذاته ترجمة أمينة لمفهوم الجماعة الانسانية حسبما يريدها القرآن .

ومن خلال هذه الجماعة التى تكونت على التوحيد واجتمع شملها على الايمان باشر الشيخ محمد تربية أفرادها على خلق الاسلام وإلزامهم بسائر ضوكبطة لاسيما فيما يتعلق بين العبد وربه « فاجتمع الناس على الصلوات والدروس والسؤال عن معنى لا إله الا الله وفهم معناها والسؤال عن أركان الاسلام وشروط الصلاة واركانها وواجباتها »(١٤)

ولم يمضى وقت بعيد حتى كان مجتمع الدرعية قد ظفر بمنهج تربوى نظرى وتطبيقى . يكفل حسن تربية الفرد المسلم من خلال الجماعة . منهج يقوم على الحقائق الاسلامية الاساسية . التى تتضمنها الكليات الخمس : توحيد الله تعالى واتباع رسوله ومساواة بنى الانسان والعلم والتعلم . وتيقن محمد بن عبد الوهاب ان السبيل الى ضمان استمرار المجتمع المسلم يتوقف على التعليم .

من هنا كان حرصه على تعليم أتباعه وترغيبهم فى التعلم واهتمامه بعامتهم وخاصتهم فى هذا الخصوص ووضعه الاسلوب الأمثل لتعليم كلٌ حسب استعداده فيقول : « ينبغى للمعلم أن يعلم الانسان على قدر فهمه »(١٥)

ثم يفصل درجات الناس ويعطى كلا حسب قدر ثقافته وذكائه . ويحدد غاية العلم والتعليم فى أن يعرف المسلم الحقوق التى عليه . ثم يرتب له هذه الحقوق بدءا بالأدنى وترقيا الى الأعلى **« فيضيف له حقوق الخلق مثل حق المسلم على المسلم وحق الأرحام وحق الوالدين . وأعظم من ذلك حق النبى ﷺ ، ثم حق الله ، وحق الله عليك أعظم »**(١٦)

ومن مصنفات الشيخ التى عالج فيها هذا الجانب التربوى فى أوساط العامة . رسالة «تلقين أصول العقيدة للعامة»(١٧) .

ومن حقوق المسلم على المسلم تلك التى يتبادلها الحاكل والمحكوم . مما يعرف حديثا بالحقوق العامة ، ولا يستقيم شأن جامعة إنسانية إلا على علاقة واضحة تستقر عليها هذه الحقوق التى أصبحت مجالا للنعى عليها فى الدساتير والقوانين الأساسية .

والشيخ محمد بن عبد الوهاب يضع هذا النوع من الحقوق فى مكان الصدارة من تفكيره ويسوق لذلك الاستشهاد بالحديث الصحيح : «إن الله يرضى لكم ثلاثا : ألا تعبدوا إلا الله ولاتشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم»(١٨) .

واستدلالا بهذا الحديث يرتفع الشيخ محمد بمركز ولىّ الأمر ، من حيث حتمية وجوده ، ووجوبةطاعته والا نقياد له إلى حد اعتبار مخالفته والخروج عليه من مسائل الجاهلية . كانوا يرون أن «مخالفة ولىّ الأمر وعدم الانقياد له فضيلة والسمع والطاعة ذل ومهانة . فخالفهم رسول الله ﷺ وأمر بالصبر على جور الولاة وأمر بالسمع والطاعة لهم والنصيحة(١٩) .

ومن الجدير بالذكر أن دعوة الشيخ بوجوب طاعة ولى الأمر ليس مطلق الطاعة حتى فى المعاصى ، إذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . إنما المعنى: فى انتظام الجماعة فى الطاعة والتحذير منةالخروج على الإمام لمجرد الرغبة فى الخروج والتباهى به كسنن الجاهلية الأولى .

ثم يرسم الشيخ محمد لولىّ الأمر وللرعية معا طريق استدامة الود بينهما ، الكفيلة بدوام تعاونهما على البر والتقوى : فيحدد الحب فى الله والبغض فيه ، وأن فقدان الجماعة لهذا الحب هو الذى يدخل الخلل على علاقات الحاكمين وفى ذلك يقول:

«يجيئنا من العلوم أنه يقع بين أهل الدين والأمير بعض الحرشة وهذا شىء ما يستقيم عليه الدين ، والدين هو الحب فى الله والبغض فيه» .

ويضع يده على العلة الحقيقية فى حدوث هذا الخلل فى العلاقة بين الحاكم والمحكوم . أنهم فى رأى الشيخ « بطانة السوء التى يجب أن يحذر الأمير وسواسها . فإن كان الأمير ما يجعل بطانته أهل الشر »(٢١)

وهو إذ يدعو الأمير أن يتخذ من أهل الدين بطانته يدعو هؤلاء الى أن عليهم جمع الناس على أميرهم والتغاضى عن زلته وأن يجعلوا نصحهم له برفق وخفية عن الناس ، مع تجنب الغلظة الموجبة للفرقة » . فان بعض أهل الدين ينكر منكرا وهو مصيب ؛ لكن يخطئ فى تغليظ الأمر الى شىء يوقع الفرقة بين الاخوان .(٢٢)

وقد آتت تربية الشيخ محمد ثمارها فى تقوية أواصر الحاكم والمحكوم بحيث أصبح المجتمع القائم فى الدرعية قادرا على مواجهة الهجوم المتوالى الذى شنه أعداؤه عليه من داخل الجزيرة العربية وخارجها والذى دام عشرات السنين .

ويمكننا أن نقول على ضوء ما تقوم : ان الشيخ محمد بن عبد الوهاب أقام منهجه فى تربية الفرد من خلال الجماعة على : إنارة وجدانه بالتوحيد الخالص والاتباع الأمين لرسول الله ﷺ ، ثم اندركجة فى الجماعة المسلمة على قاعدة المساواة التامة فى الحقوق والواجبات مساواةتقوم

على دعامتين رئيسيتين : وحدة أصل الانسان ، فلا تفاوت فى العرق ، ووحدة الغاية ، وهى عبادة الله وحده ، وأن هذه الجماعة المسلمة مطالبة بحماية افرادها من زيغ العقيدة بالتربية السليمة ، ومن عدوان الاعداء بالاستعداد للجهاد فى سبيل الله ، وأن التزام هذه الجماعة بهذه المبادىء عين الايمان ، والخروج عليها ومفارقتها كفر وشقاق .

* * *

● الهوامش ●

(١) الجاثية / ٢٤
(٢) التين / ٤
(٣) البقرة / ٣٠
(٤) البقرة / ٣١
(٥) النجم / ٣٩
(٦) الأنعام / ١٦٤
(٧) العلق اقرأ / ٢
(٨) الذاريات / ٥٦
(٩) الاعراف / ١٥٨
(١٠) ابن بشر / عنوان المجد فى تاريخ نجد ـ حـ١ ص ٢
(١١) المرجع السابق حـ١ / ص ٢٢ ، ٢٣
(١٢) المرجع السابق .
(١٣) ابن بشر / عنوان المجد / حـ ١ ص ٢٤
(١٤) الدرر السنية / حـ ١ ص ٩٨
(١٥) المرجع السابق ص ١١٤
(١٦) الدرر السنية / حـ ١ ص ٩٨
(١٧) مجموعة التوحيد ـ الرسالة الخامسة ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨
(١٨)المرجع السابق ـ مسائل الجاهلية ـ ص ٢٣٧
(١٩) المرجع السابق ـ الرسالة الأولى ـ ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧
(٢٠) الدرر السنية جـ ٢ ص ٢٣٩
(٢١) المرجع السابق
(٢٢) ابن غنام ـ رسالة الشيخ لأهل الحوطة وايضا الدرر السنية حـ ٧ ص ٢٥